العدد (1965) السنة الثامنة - الاثنين (15) تشرين الثاني 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - mail: a...a@almadapaper.com

ملف المدى

مثلما فعل شعب استونيا وحق استقلاله بثورة الغناء التي ما زالت حاضرة في اذهان الكثير من شعوب الارض من حقق منها حريته وديمقراطيته ومن لم يحقق، حقق شعبا لتوانيا ولاتفيا الشيء نفسه وكتبت الشعوب الثلاثة معا تاريخا رائعا يؤكد لكل شعوب الارض ان الارادة عندما تكون حاضرة بمعناها الحقيقي فلا شيء يقف على طريقها وان الحرية والديمقراطية يمكن تحقيقها باسلوب غير العنف والدماء..

ما حققه شعبا لتوانيا ولاتفيا هو موضوع ملف المدى في جزئه الثاني من قصة ثورة الغناء التي دامت اربعة اعوام والتي بها بزغت شمس الاستقلال والحرية وبدأت حياة جديدة لهذين الشعبين.

■اعد الملف/ جمال القيسي

لتوانيا ولاتفيا..

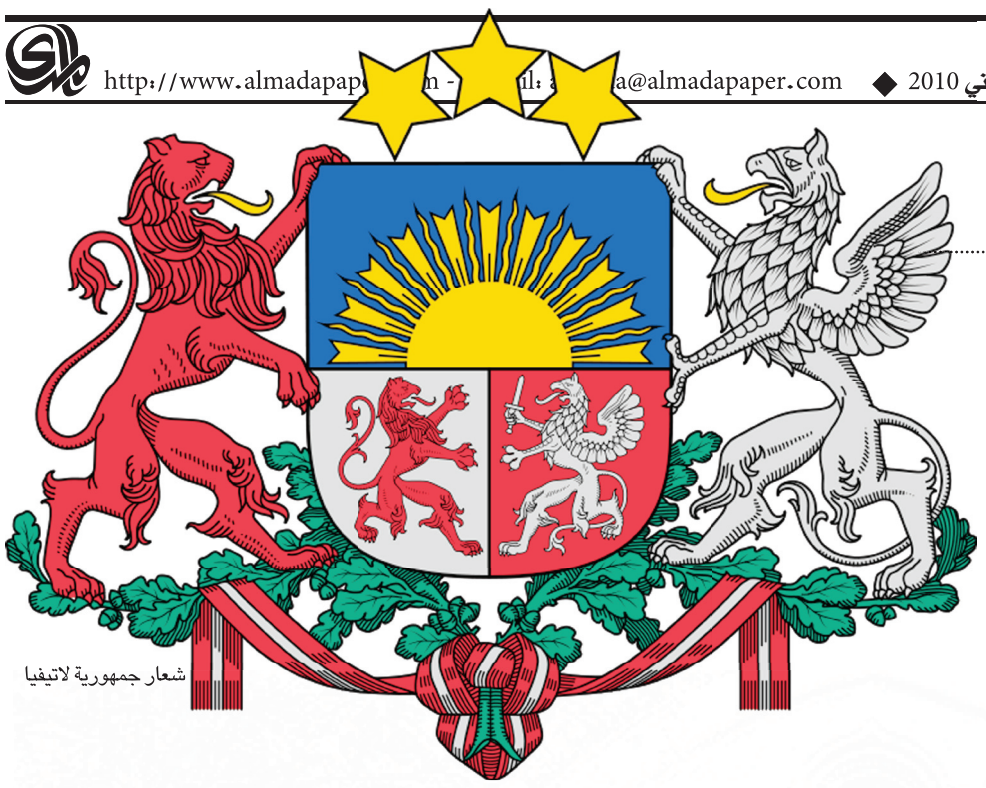

شعار جمهورية لاتيفيا

شعبان صنعا بالغناء حياة جديدة وتغلبا على الظلم والطغيان

أكثر دول العالم انتاجاً للطاقة نووياً

تعد ليتوانيا أكبر دولة من دول البلطيق الثلاث وإحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق إلا إنها ليست من دول شرقي أوروبا فلتوانيا ولاتفيا وإستونيا هي من دول أوروبا الشمالية ولذلك شعوب دول البلطيق مختلفون ثقافياً ولغوياً وجغرافيا عن الشعوب في أوروبا الشرقية. انضمت لتوانيا إلى الاتحاد الأوروبي عام ٢٠٠٤، وتحدها لاتفيا من الشمال، وروسيا البيضاء من الشرق والجنوب، وبولندا من الجنوب الغربي وإقليم كالينغراد الروسي وبحر البلطيق من الغرب، اما سكانها فأن ٨٣,٥٪ منهم لتوانيون ويتحدثون اللتوانية، كما ان هناك بعض الأقليات الأخرى، أهمها الروسية (٦٪)، البولندية (٦٪) والروسية البيضاء (١,٥٪). اما الديانة فان الكاثوليكية هو الدين السائد في البلاد، الأرثوذكسية، البروتستانتينية، واليهودية إضافة لاقلية مسلمة هم الأديان الباقية في لتوانيا، واللتوانية هي لغة البلاد الرسمية (يُشار إلى اللتوانية كلغة البلطيق أحياناً).

ويبلغ طول ساحلها حوالي ١٠٠ كم، فقط ٣٨ كم منه يقع مباشرة على بحر البلطيق، والباقي تشكله بحيرة كورسيو التي يفصلها شريط ضيق عن البحر، اما أهم أنهر البلاد فهو نيموناس، التي تستخدم بعض أجزائه للملاحة النهرية، وتضاريس البلاد بشكل عام سهلية ما عدا بعض الهضاب في الغرب والشرق لا يتعدى علوها ٣٠٠ متر، مع اعتبار جوزابينس بـ ٢٩٢ متر أعلى نقطة في لتوانيا، وارضها مغطاة بالعديد من البحيرات و الغابات (التي تشكل ٣٠٪ من المساحة) والمناخ فيها هو خليط من المناخ الساحلي و القاري، مع فصول معتدلة وممطرة على مدار العام. العاصمة فيلنيوس تقع على بعد كيلومترات عدة من نقطة الوسط الجغرافي في أوروبا.

النظام السياسي في لتوانيا ينص على ان الرئيس هو أعلى منصب سياسي في البلاد، يُنتخب مباشرة كل خمس سنوات ويشغل أيضاً منصب القائد العام للقوات المسلحة. كما يقوم رئيس البلاد بتعيين رئيس الوزراء بعد موافقة البرلمان عليه، الذي بدوره يُشكل الحكومة ويُعين عدداً من القضاة والموظفين المدنيين الكبار، ولدى البرلمان الليتواني عدد أعضاء يبلغ ١٤١ عضواً، يتم انتخابهم كل أربع سنوات، وكل حزب يجب أن يحصل على نسبة ٥٪ على الأقل في الانتخابات ليستطيع تمثيل نفسه بالبرلمان، ومن أهم أحزاب البلاد هي: حزب الوطن، وحزب العمال، والحزب الليبرالي الديمقراطي، وحزب الوسط الليبرالي والحزب الاشتراكي الجديد.

والعطل الرسمية في البلاد هي رأس السنة الميلادية (الأول من كانون الثاني)، ويوم إعادة تأسيس الجمهورية (٦ شباط)، الاستقلال عن الاتحاد السوفياتي (١١ آذار)، وعيد الفصح، وعيد العمال، وعيد تنصيب الملك (٦ تموز)، وعيد انتقال مريم العذراء (١٥ آب)، وعيد جميع القديسين (الأول من تشرين الثاني) وليلة عيد الميلاد المجيد (٢٥-٢٦ كانون الأول).

وتقع ليتوانيا في منطقة ثقافية متنوعة الأصول، ففي مناطق العاصمة تتنشر الثقافة البولندية، بينما في مدن الساحل يكثر تأثير الثقافات الاسكندنافية والألمانية و يرى المرء عدة أنمطة عمارة في البلاد، تعود أصولها إلى التأثير الكاثوليكي.

اما أهم الصناعات في لتوانيا فهي، الأثاث، المنسوجات والمواد الغذائية،و ٨٠٪ من الكهرباء المنتجة في البلاد تتم من خلال المفاعلات النووية. بذلك تكون ليتوانيا (إلى جانب فرنسا) من أكثر الدول في العالم يتم إنتاج طاقتهم باستخدام الطاقة النووية.

بوابة البلطيق.. ماضٍ يحكي كابوس الحرب وقصة الاستقلال

بعد عشرين سنة من انهيار حائط برلين زار كبير محرري لوفيغارو الفرنسية فرانسوا هوتر بلدان المعسكر الاشتراكي سابقاً، وكان من بينها لتوانيا فكتب هذه السطور حيث قال: في ريغا لا يزال كابوس الحرب العالمية الثانية جاثما على انفاس الجميع، واما الماضي الرهيب للحرب فمتجذر في العمق.

يقول الفنان الليتواني انتاناس بوزوسكاس-وهو يتحدث عن تاريخ بلدان هذه المنطقة (البلطيق)-: ان النهر يحمل معه الكثير من الطين حين تبدأ مياهه بالتدفق، مما يستدعي انتظار الكثير من الوقت حتى يعود الى وضعه الطبيعي.

منذ المرحلة الثانية في هذه الرحلة، ومنذ وصولي الى ريغا عاصمة ليتوانيا، غرقت في بحر التاريخ. لقد استمعت الى متحدثين من اكاديمية العلوم وهو مبنى كبير يضم ايضاً الكاتدرائيات، واما الجدران فتمت صباغتها باللون الأخضر، في حين كان موديل الثريات قديما جدا ويعود الى سنوات الستينات.

بنطال من عهد الإمبراطورية

لاحظت الغبطة على محيا الناس في كافتيريا الاكاديمية، حيث كانت النادلات يرتدين بنطالات، تعود بنا طريقة خياطتها لعهد الامبراطورية الروسية، فيما كان احد الفنيين يجر عربة محملة بالبطاطا، وايضاً بالبريد اليومي للاكاديميين، واما من كانوا في الكافتيريا فاحدثوا جلبة بصحون الشوربة، حيث كانت تسبح بعض كرات اللحم المفروم.

هنا يأكلون كل شيء بما في ذلك اوراق السلطة التي تزين الطبق وقطعة الليمون التي توضع على اي صحن. تفوح رائحة الشيوعية في شوارع ريغا وفي لياليها الشتوية، حيث ترى الأوجه حزينة وايضاً منغلقة على ذاتها، فيما الشوارع متجهمة واصحاب سيارات الاجرة يتصارعون على الدور لنقل المواطنين الى مختلف الاتجاهات.

أشباح في كل مكان

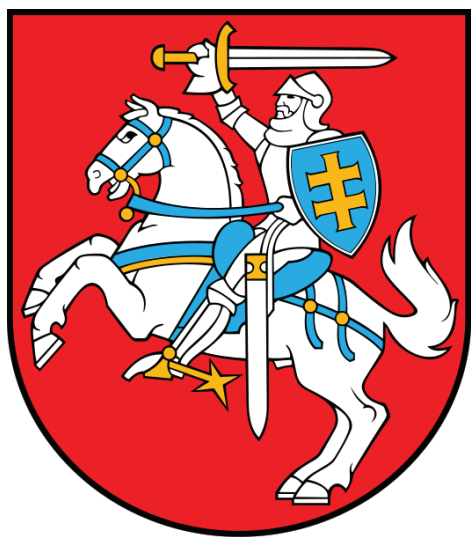

وأما في الريف، فيوجد أكثر من ثلاثمائة قصر، لا تزال آثارها شاهدة على سباقات الفرسان الليتوانيين، الذين حكموا المنطقة ثمانية قرون، لكنهم خسروا أملاكهم بعد الحرب العالمية الأولى.

لكن الأشباح تظهر في كل مكان هنا، ذلك أن ليتوانيا خسرت نصف سكانها في القرن العشرين.. فمنذ عشرة قرون، تعودت القوى المجاورة ويتعلق الأمر بالسويد وألمانيا وروسيا على اجتياح المنطقة وتقتيل شعبها لدى مرورها وهذا بمعدل مرتين كل مائة عام. وأما الوحشان هتلر وستالين فقد سفكا دماء الليتوانيين بقسوة لم تعرفها الكرة الأرضية من قبل.

ذكريات زمن غابر

لا يتحدث الناس اطلاقاً عن الحرب العالمية الثانية في أوروبا، غير أن ساعة الزمن عادت بي الى الوراء في ريغا، حيث حدثني شباب في الاربعين عن أمهاتهم اللواتي قتلن أو ضعن في تلك الفترة، التي لم يستطعوا نسيانها، فالجرائم تلك وكأنها وقعت بالأمس فقط بالنسبة لهم.وفجأة فرضت هذه الذكريات نفسها على حديثنا، حيث عدنا الى مرحلة تقديس القادة والخضوع للقوة ومراقبة الأذكياء وتحويلهم الى روبوتات أو عبيد.

لقد غادر آخر جندي في الجيش الأحمر ليتوانيا منذ ١٥ سنة فقط. وأما مقر وكالة الاستخبارات الواقع في مفترق الطرق بين شارعي بريفيباس (الحرية) وشارع ستابو (وهي آلة خشبية كان يعذب عليها المجرمون ليحرقوا بعد ذلك)، فما زال شاغراً حتى الساعة، ذلك أن لا أحد استغله.

في مبنى المخابرات

لقد زرت دهاليزه والزنزانات التي كانت تشهد عمليات التعذيب واحداها كانت تشهد يومياً اعدام ٢٥ شخصاً. كان من يدخل هنا يدخل للموت أو للترحيل الى معسكرات العمل. لقد اختفى هذا العالم ظاهرياً في ليتوانيا، لكنه لا يزال حاضراً في قلوب الليتوانيين وأرواحهم ويخنق عشرات الملايين من الأفراد في أوروبا الوسطى.

لقد سمعنا بهذا في فرنسا وتعاطفنا مع الجميع والبعض عندنا قرأوا عن معسكرات العمل هذه في كتب الأديب الروسي سولجينيتسين، غير أن هذا الرعب لم يكن في يوم من الأيام جزءاً من يومياتنا، مثلما هي حال أولئك الذين التقيتهم في ليتوانيا واستونيا ولاتفيا.

وأما الأمر الذي آلمني كثيراً في رحلتي بين أطراف أوروبا فهي تلك المسافة المعتبرة التي تفصل بين تاريخ منطقة وأخرى. ان الأمر يمثل حاجزاً حقيقياً بيننا، خصوصا أن التاريخ في ليتوانيا يمثل مشكلة قائمة لحد الساعة، ومشكلة يتحدث عنها الكبير والصغير والشاب، حيث كل واحد يحاول أن يروي ويفسر الأحداث وينسجها وفق منظوره.

بوابة البلطيق

لقد استمر هذا الاحتلال ٤٤ عاماً، وهو ما بقي لصيقا بالاذهان، لان الليتوانيين المرحلين تم تعويضهم بالروس، ذلك ان ليتوانيا مثلها مثل دول البلطيق هي بوابة روسيا على بحر البلطيق.

هكذا شاهدت ريغا بعد ١٨ سنة من قبول السوفيت استقلال دول البلطيق في عام ١٩٩١، واليوم فان ٣٥ في المائة من سكان ليتوانيا يتحدثون الروسية التي يتحدثها ايضاً ٦٥ في المائة من سكان ريغا.

يتماوج السكان هنا بين ثقافتين وبين تاريخين ايضاً، وبالنسبة للروس، يعتبر النازيون وحوشا، واما الليتوانيون المنحدرون من اصول المانية فيعتقدون ان لا شيء يمكن مقارنته بوحشية الشيوعية السوفيتية، لكني خلصت الى ان مسألة الهوية في ليتوانيا قضية ذات اولوية.

في نافرا الأستونية

ومن ريغا الى نافرا وهي نقطة التقاء الاتحاد الاوروبي بروسيا، واستونيا التي عاشت سنوات الاحتلال، لم تعد اليوم مهددة من قبل الاتحاد السوفيتي بعد ٢٠ سنة من انتهاء الحرب الباردة.

كان جدي في نهاية ثلاثينات القرن الماضي يسبح في نهر الراين، ليجد نفسه فجأة في الضفة الاخرى اي في المانيا، حيث كان شباب في مثل سنه يقيمون خط سيغفريد، قبالة خط ماجينو.

١٥ ألف نهر وبحيرة في لاتفيا!

جمهورية لاتفيا هي أحد جمهوريات البلطيق الثلاث وإحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق. ولها حدود مع إستونيا (٣٤٣ كم) وليتوانيا (٥٨٨ كم) وبيلاروسيا (١٤١ كم)، وتغطي لاتفيا مساحة قدرها ٦٤٥٨٩ كم٢. وقد أصبحت عضواً في الإتحاد الأوروبي منذ ١ ايار ٢٠٠٤ وعضواً في حلف الناتو منذ ٢٩ اذار ٢٠٠٤.

يبلغ عدد سكانها ٢,٢٤ مليون مما يجعلها أحد أقل دول الإتحاد الأوروبي سكاناً، وهي تقع على الساحل الشرقي لبحر البلطيق في السهل الأوروبي الشرقي، مساحة كبيرة من البلاد مُغطاة بالغابات، وتملك ١٢٠٠٠ نهر صغير و ٣٠٠٠ بحيرة. معظم اراضيها خصبة ومنخفضة الارتفاع، حيث يبلغ علو أعلى نقطة ٣١٢ متر، اما خليج ريغا الواقع في شمال غرب البلاد فهو خليج صغير وامتداد لبحر البلطيق، وتقع العاصمة ريغا على هذا الخليج ومن هنا أتت تسمية البلاد، يصب نهر داوجافا فيه أيضاً. وطقسها ساحلي مع صيف بارد وممطر وشتاء معتدل إلى حد ما.

وتركيبة لاتفيا السكانية أصبحت مختلطة منذ زمن طويل من ناحية القومية أو الدين، فقط حوالي ٦٠٪ من السكان هم لاتفيون، فيما يشكل الروس نسبة ٢٩٪ أكبر جالية أجنبية، لدرجة أنهم في بعض المدن يشكلون غالبية السكان، كما ان هناك أقليات من روسيا البيضاء وأوكرانيا وبولندا وليتوانيا، ويعود التنوع العرقي في البلاد إلى حقبة الاتحاد السوفيتي.

ولغة البلاد الرسمية هي اللاتفية وهي تتبع مجموعة اللغات البلطيقية التي بدورها تنحدر من اللغات الهندو-أوروبية، ولكنها ليست جرمانية ولا سلافية، و يوجد ما يقارب ١,٤ مليون نسمة يتحدثون اللاتفية كلغة أم، وما يقارب ١٥٠،٠٠٠ يعيشون خارج لاتفيا. كما إن اللاتفية يتكلمها عدد كبير كلغة ثانية. وخاصة الجاليات كالجالية الروسية التي تعيش في لاتفيا وتكتب اللغة اللاتفية بالأبجدية اللاتفية المتفرعة من الأبجدية اللاتينية مع بعض الحروف المميزة، اما العطل الرسمية فهي رأس السنة الميلادية وعيد الفصح وعيد العمال (الأول من أيار) وعيد الاستقلال (٤ أيار) وليلة ويوم منتصف الصيف (٢٣-٢٤ حزيران) وإعلان الجمهورية اللاتفية (١٨ تشرين الثاني) وليلة وعيد الميلاد المجيد (٢٥-٢٦ كانون الأول).

وتشتهر لاتفيا بالفلكلور الشعبي وخصوصاً الأغاني الفلكورية التي يعود تاريخها لحوالي ١٠٠٠ سنة، والتي تميزت بأكثر من ١,٢ مليون نص و ٣٠،٠٠٠ لحن فلكوري.

لماذا يذكر اللاتفيون الاستعمار "السويدي" بخير؟

تقول كتب التاريخ الخاصة بدول البلطيق ان منطقة لاتفيا إستوطنت منذ ٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد بعد تراجع جليد العصر الجليدي، وفي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد إستوطن البلطيقيون أجداد اللاتفيين الساحل الشرقي لبحر البطليق، وأسسوا طرقا تجارية إلى روما وبيزنطة لاستبدال الكهرمان المحلي بالمعادن الثمينة، وبحلول عام ٩٠٠ م، سكنت أربع قبائل بلطيقية في لاتفيا، وهم الكورنيان واللاتجاليان، والسيلونيان، والسيميجاليان.وبالرغم من أن الناس المحليين في لاتفيا كانو على اتصال بالعالم الخارجي على مدى قرون، لكنهم لم يندمجوا مع المجتمع الأوروبي إلا في القرن الثاني عشر الميلادي، المبشرون الأوائل الذين أرسلوا عن طريق بابا الفاتيكان أبحروا في نهر داوجافا في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، على أية حال لم يتحول السكان المحليون في لاتفيا إلى المسيحية كما كان يتمنى بابا الفاتيكان، ولكن الصليبيين الألمان ذهبوا إلى لاتفيا لإدخال الناس في المسيحية وإجبارهم على ترك الوثنية بالقوة والسلاح والتهديد، وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي سيطر الألمان على مساحات شاسعة من لاتفيا ومساحات أخرى من جنوب إستونيا وضمت هذه المناطق في الدولة التي تعرف باسم ليفونيا. و في عام ١٢٨٢ م دخلت ريغا ومدن أخرى مثل سيسيس وليمبازي وكوكنيس وفاليرا في الرابطة الهانزية، ومن هذا الوقت أصبحت ريغا مركزا مهما للتجارة بين الشرق والغرب، وهي مركز المنطقة البلطيقية الشرقية شكلت اتصالات ثقافية مع أوروبا الغربية.

لقد كانت الفترة ما بين القرن السادس العشر والثامن عشر الميلاديين فترة تغيير رائعة لسكان لاتفيا، وتضمنت هذه الفترة إصلاحات كبيرة، وإنهيار دولة ليفونيا، وتقاسم القوى الأجنبية للأراضي اللاتفية، وبعد الحرب الليفونية (١٥٥٨-١٥٨٣) سقطت ليفونيا (لاتفيا) تحت سيطرة بولندا وليتوانيا، وقد ضمت الأراضي الشمالية من لاتفيا والجنوبية من إستونيا إلى إمارة ليتوانيا الكبرى وشكلوا معاً ذوقية ليفونيا، ويعد جوتهارد كيتلر آخر قائد في ليفونيا شكل ذوقية كورلاند وسميجالا وكانت هذه الذوقية تابعة لبولندا.

الذعرة والزيزفون والسنديان رموز وطنية

في الكثير من البلدان هناك رمز وطني- أو رمز قومي-، كالولايات المتحدة التي تتخذ النسر الأمريكي رمزاً لها، وتتخذ لاتفيا بعض من الرموز الوطنية لها كالطيور والأشجار.

وتعد شجرة السنديان وشجرة الزيزفون من الأشجار الوطنية في لاتفيا، حيث تعد هذه الأشجار عنصراً رئيسياً في المناظر الطبيعية واعتاد الناس مشاهدتها، ولا تزال هاتان الشجرتان تستعملان في الأمور الطبية والعلاجية. حيث تصنع الحقن الطبية من أزهار الزيزفون كما تصنع أيضاً من نبات السنديان.

كما تعد الذعرة البيضاء الطير الوطني في لاتفيا، ويتواجد هذا الطير النحيل والرشيق كثيراً بين شهري نيسان وتشرين الاول.

اتحادها مع بولندا استمر أربعة قرون!

توسعت الدولة الليتوانية في القرن الخامس عشر حتى وصلت حدودها إلى موسكو والبحر الأسود يوماً ما، وشكلت مع بولندا اتحادا اسميا عام ١٣٨٤ والذي استمر حوالي أربعة قرون من الزمن، ثم دخلت البلاد عام ١٧٩٥ م تحت السيطرة الروسية. الألمان احتلوا ليتوانيا وجمهوريات البلطيق عام ١٩١٥ م أثناء الحرب العالمية الأولى(١٩١٤-١٩١٥)، و في عام ١٩١٨ م أعلن الاستقلال وكان الاتحاد السوفياتي اول المعترفين بليتوانيا عام ١٩٢٠ وأعلن قيام جمهورية برلمانية، ثم انضمت دول البلطيق الثلاث إلى عصبة الأمم المتحدة عام ١٩٢١، لكن اتفاق هتلر-ستالين عام ١٩٣٩ أعطى الضوء الأخضر للاتحاد السوفياتي باحتلال جمهوريات البلطيق ومن ضمنها ليتوانيا، الذي تم في عام ١٩٤٠ أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) بدون أي سابق إنذار.

و بعد نشوب الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي، قامت الأولى باحتلال جمهوريات البلطيق عام ١٩٤١، إلى أن أعاد الجيش الأحمر احتلالهم وإعادتهم تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي. تماماً كجمهوريات البلطيق الأخرى بقي تاريخ ليتوانيا جزءاً من التاريخ السوفياتي في السنوات التالية حتى الأعوام ١٩٨٨-١٩٩٠، عندما بدأ الاتحاد السوفياتي بالانهيار وتزايد الأصوات المطالبة باستقلال البلاد، واعلنت ليتوانيا استقلالها عام ١٩٩٠، وهو ما رفضه الاتحاد السوفياتي في البداية وأرسل قوات عسكرية سوفياتية لفرض السيطرة ولكنه مع تزايد الضغوطات الدولية، اعترف في العام التالي بالجمهورية الجديدة. لتنظم ليتوانيا إلى الأمم المتحدة عام ١٩٩١ وإلى الاتحاد الأوروبي عام ٢٠٠٤.